

الفصل السابع

النقد الباطني الإيجابي

الغرض من النقد الباطني - عملياته - النقد الباطني الإيجابي - تحليل النص التاريخي - تحديد المعنى الحرفي للألفاظ - تحديد المعنى الحقيقي وغرض الكاتب - بعض الطرق لكشف المعاني الخفية - إشارة إلى بعض الأسس التي اتبعها علماء المسلمين في تفسير القرآن .

الغرض من النقد الباطني هو الوصول إلى الحقائق التاريخية خلال الوثائق والأصول التاريخية . فالأصل التاريخي يصل إلى الباحث في التاريخ نتيجة عدة عمليات ، لا يشرحها الكاتب في الغالب . فهو في أحوال كثيرة لا يوضح كيف لاحظ الوقائع ، ولا كيف جمع معلوماته عنها ، ولا كيف صاغ العبارات التي تعبر عنها التعبير الصحيح ، ولا كيف دونها . وهذه كلها عمليات مستقلة كل واحدة منها عن الأخرى ، ومن الجائز أنه لم تراع الدقة التامة بشأن بعضها أو بشأنها جميعاً .

وعلى ذلك فن الضروري أن تحلل الوثيقة أو النص التاريخي ، لمعرفة العمليات التي لم تراع فيها الدقة اللازمة - بقدر الإمكان - حتى لا يأخذ الباحث بما ورد به من المعلومات قبل التثبت من صحتها . فالتحليل (analysis) ضروري في نقد الأصول التاريخية . وما من نقد يمكن أن يجري دون أن يبدأ بالتحليل . ومن أهم واجبات التحليل استرجاع أغلب العمليات التي قام بها المؤلف ، منذ الوقت الذي بدأ فيه بمشاهدة الحادث - إن كان قد فعل ذلك - حتى تحركت يده لتسطير الأصل التاريخي المائل بين يدي الباحث في التاريخ . أو على العكس من ذلك ، ينبغي أن يسير الباحث ابتداء من الحادث المسجل في الأصل التاريخي ، حتى يصل إلى الوقت الذي شهد فيه المؤلف ذلك الحادث - إن كان قد فعل ذلك . ولا شك أن ذلك يستغرق الزمن ويقتضي الصبر .

ويلجأ أكثر الباحثين في التاريخ دقةً إلى طريق مختصر ، ويركزون عملياتهم في مجموعتين :

١ - تحليل محتويات الأصل التاريخي بالنقد الباطني الإيجابي الضروري للتحقق من معنى الألفاظ ومن قصد المؤلف بما كتبه .

٢ - تحليل الظروف التي دُون فيها الأصل التاريخي ، بالنقد الباطني السلبي - الذي سيأتي بعد - والضروري لإثبات صحة المعلومات المدونة .

وربما يتوقف بعض الباحثين في التاريخ عن تطبيق هذا النقد المزدوج نظراً لما يلاقونه فيه من المشقة والعناء . ولكن التاريخ العلمي لا يُكتب بغير هذه الوسيلة . وبمقدور ما يحرص الباحث على تطبيق النقد بهذا المعنى ، تصبح كتابته أقرب إلى الصدق وأدخل في نطاق البحث العلمي .

وينبغي أن نلاحظ أن مَنْ يقرأ نصّاً تاريخياً ولا يوجّه عنايته الأساسية إلى محاولة فهم محتوياته ، من المؤكد أنه سيفسر بعض نواح منه بناء على تصوّره ، مما قد لا ينطبق على الواقع التاريخي . فقد يجد عبارات أو كلمات توافق آراءه وتصوره للحوادث ، فيستخرج هذه العبارات دون وعي منه ، ويجعل منها نصّاً خيالياً ومفتعلاً ، ويضعه في موضع النص التاريخي الحقيقي الذي لم يتمكن من الوصول إليه . وبعض الباحثين في التاريخ يقومون ببحثهم وهم تسيطر عليهم فكرة معينة عن حادث ما أو عن اتجاه خاص في الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الدينية . . . ويدرسون تحت تأثيره الأصول التاريخية التي تقع تحت أيديهم ، وبذلك ربما يفهمون هذه الأصول فهماً خاطئاً أو لا يفهمونها على الإطلاق .

وفي مثل هذه الحالة يرفض ذهن الباحث قبول الأفكار والآراء المعارضة ، وتكون النتيجة ألا يأخذ الباحث بما يورده النص التاريخي من الحقائق ، وبذلك يتكيفّف النص التاريخي ويتشكّل بحسب الفكرة المسيطرة على ذهن الباحث . وقد يظن الباحث أنه يفسّر النص تفسيراً حديثاً مبتكراً ، ولكن الحقيقة أنه يُخضع النص لفكرته الخاصة على حساب الحقيقة التاريخية ، ويأخذ الحادث التاريخي اللون والتفسير والمُدلول الملائم الذي يريده له عقل الباحث .

ومن شأن هذا كله أنه يبعد بالباحث عن الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي ينشدها . فينبغي على المؤرخ أن يبدأ عمله في هذه المرحلة من البحث ، بتحليل دقيق للأصول التاريخية التي تقع تحت يده ، وأن يكون غرضه الأساسي استخراج

الحقائق منها - بقدر المستطاع - وليس إضافة ما لا وجود له على تلك الأصول^(١).
 فينبغي أن تُدرس الأصول التاريخية على اعتبار أنها تحتوى فقط على آراء
 الأشخاص الذين دونوها. وعلى الباحث أن يجعل النص يفسر نفسه بنفسه - بقدر
 الإمكان - قبل السعى إلى استخراج الحقائق التاريخية منه. ونخرج من ذلك
 بقاعدة عامة في منهج البحث التاريخي، ألا وهي أن دراسة الأصل التاريخي ينبغي
 أن تبدأ بتحليل محتوياته للوصول إلى المعنى الحقيقي الذي قصده كاتب ذلك
 الأصل. وهذا التحليل عملية أولية أساسية قائمة بذاتها. وينبغي أن يستعين الباحث
 في هذا التحليل باستخدام صفحات ممتدة من الورق بالحجم المعروف بالفولزكاب^(٢)،
 حتى تتوفر أمامه مساحة كافية للكتابة بخط واضح، وينبغي أن يكتب على وجه
 واحد لتيسير العمل، و بالحبر حتى لا تمحى الكتابة. وحزباً على سلامة بصره.
 ويحسن به أن يجعل للصفحة هامشين يميناً ويساراً من طريق ثني جانبيها ثنياً متوازياً
 توفيراً للوقت، وتوفيراً لمكان يكتب به خلاصة ما بداخل الصفحة الواحدة، حتى
 يسهل عليه استيعاب ما بها من المعلومات أولاً فأولاً، أو لكتابة ما يعنّ له من
 الملاحظات. وهناك مَنْ يفضل كتابة اقتباسه أو ترجمته أو تحليله للأصول التاريخية
 أو كتابة مذكراته، على ما يعرف بالحزازات (الفيش)، التي سبقت الإشارة إليها.
 والتحليل يشمل إيضاح المعنى العام للوثيقة أو الأصل التاريخي، ومجمل
 محتوياته، ثم تفصيلاته، ثم وجهة نظر الكاتب، ورأى الباحث وملاحظته وتعليقه.
 وينبغي ألا تُستخرج فقرة معينة أو تفسر دون فهم الأصل في مجموعه، حتى لا يخطئ
 الباحث في استنتاجه. وتحليل أصل تاريخي ما، معناه السعى إلى فهم الحوادث
 والآراء والأفكار الواردة به، والتمييز بين كل منها على حدة.

فالنقد الباطني الإيجابي (hermeneutic) عبارة عن تحليل الأصل التاريخي بقصد
 تفسيره وإدراك معناه. ويمرّ ذلك في دورين :

أولاً : تفسير ظاهر النص وتحديد المعنى الحرفي له .

ثانياً : إدراك المعنى الحقيقي للنص ومعرفة غرض المؤلف مما كتبه .

Langlois and Seignobos : op. cit. p. 144.

(١)

(٢) الورقة الفولزكاب (foolscap) مأخوذة من قلنسوة المهرج على المسرح الهزلي إذ تصنع من
 فرخ الورق الكامل من الحجم المعروف بهذا الاسم ويكون طرفها الأعلى مدبباً .

وتحدد المعنى الحرفي لنص تاريخي معين عبارة عن عملية لغوية . ولا بد لفهم كل نص تاريخي من معرفة اللغة التي كُتِبَ بها . ولا تكفي المعرفة العامة لهذه اللغة ، بل من الضروري فهم دقائقها ، فضلاً عن الإلمام بلغة العصر التاريخي الذي يرجع إليه ذلك النص . مع الاستعانة بعلم الفيلولوجيا إذا اقتضى الأمر ذلك .

وما سبق يمكننا أن نجمل بعض القواعد التي ينبغي على الباحث السير بمقتضاها لكي يحدد المعنى الحرفي لألفاظ النص التاريخي :

١ - تتغير اللغة الواحدة من عصر إلى آخر ، لأنها كائن حي دائم النمو والتطور . ويمكن الاستعانة في تحديد معنى بعض الألفاظ الخاصة بالسعي إلى فهم الجمل والتراكيب التي وردت بها تلك الألفاظ .

٢ - قد تختلف معاني الكلمات من مكان لآخر ، فينبغي معرفة اللغة أو اللهجة المحلية التي وجدت في منطقة معينة ، والتي دُوِّنَ بها الأصل التاريخي .

٣ - لكل كاتب طريقته الخاصة في التعبير ، فينبغي الإلمام بلغة الكاتب وأسلوبه . ويمكن الاستعانة في ذلك بمؤلفاته الأخرى أو بمؤلفات العصر والبيئة التي عاش فيها ، أو ببعض المعاجم الخاصة إن وجدت .

٤ - ينبغي ألا تُفسَّر كلمة أو جملة ما بذاتها فحسب ، بل ينبغي أن تفسر في ذاتها وفي نطاق السياق العام للنص التاريخي . فلا بد من دراسة المعنى في جزئيات النص لفهم معناه العام ، كما أنه لا بد من دراسة معناه العام لفهم جزئياته .

وإذا اتبعت هذه القواعد بدقة كان الوقوع في خطأ فهم النص التاريخي أقل ما يمكن . وبطبيعة الحال لا يعني ذلك أن كل الألفاظ قد تغيرت معانيها دائماً من عصر إلى عصر ومن كاتب إلى آخر ، إذ أن التغير لا يصيب إلا جزءاً من الألفاظ والتراكيب اللغوية . وعلى الباحث في التاريخ أن يتتبع الأساليب والمصطلحات التي تأخذ معنى معيناً ، ولا تتغير ولا تتبع تطور اللغة الطبيعي ، فتخالف بذلك اللغة العصرية الشائعة ، كما يدرس الألفاظ التي تدل على معان قابلة للتغير بطبيعتها ، مثل الألفاظ الخاصة بطبقات المجتمع ونظم الحكم والعادات ، التي تتغير تبعاً لما تقتضيه ظروف الحياة . فلا بد من التدقيق في معرفة معنى كل منها في العصر الذي كُتِبَ فيه وفي النص الذي وردت به . وبدون ذلك كثيراً ما يتعرض الباحث

للخطأ في فهم النصوص واستخلاص الحقائق التاريخية منها .

وعندما ينتهى الباحث من تحديد المعنى الحرفى للألفاظ والتراكيب التى تحتمل الشك فى معانيها ، عليه أن يصل إلى معرفة غرض الكاتب والمعنى الحقيقى لما كتبه . فمن الجائز أنه كتب بعض الأساليب والتراكيب غير الواضحة ، وفى هذه الحالة لا يؤدى ظاهر النص إلى المعنى المقصود . وتعرض المؤرخ حالات كثيرة من هذا النوع ، تحتوى على تشبيه أو مجاز أو استعارة أو كناية أو رمز أو هزل ومداعبة أو تلميح وتعريض ، أو التعبير عن المقصود بطريقة سلبية . فى هذه الحالة لا يكفى فهم ظاهر النص والمعنى الحرفى للألفاظ ، بل لابد من محاولة الوصول إلى المعنى الحقيقى الباطنى الذى قصد إليه كاتب النص التاريخى .

وقد تبدو المسألة معضلة فى بعض الأحيان . ولا توجد قاعدة معينة نستطيع الوصول عن طريقها إلى المعنى الحقيقى فى مثل هذه الحالات الغامضة . وفى بعض الكتابات التى يداعب فيها الكاتب جمهور القراء ، والتى أصبحت نوعاً من الأدب فى أواخر القرن التاسع عشر فى أوروبا ، نجد أن من أهم أغراض الكاتب ألا يقدم دليلاً ، يمكن أن يفصح عن المعنى الحقيقى الذى يقصده . وبالضرورة إذا كان أهم أغراض الكاتب أن يكون واضحاً مفهوماً لدى القارئ ، فلا توجد فى كتابته عبارات وأساليب غامضة . وفى الغالب لا يصادف الباحث صعوبات من هذا النوع فى الوثائق الرسمية أو فى كتب التاريخ بعامة ، وفى أغلب هذه الكتابات يبيى معنى النص مطابقاً لمعنى ألفاظه تماماً .

فعلى الباحث فى التاريخ أن يكون مستعداً للكشف عن المعانى الغامضة وأن يقرأ ما بين السطور ، خصوصاً إذا كان للمؤلف أغراض أخرى أهم من أن يكون واضحاً مفهوماً ، أو إذا كان قراؤه ذوى عقلية وثقافة خاصة ، تجعلهم قادرين على فهم كتاباته ومجازاته . وهذا ينطبق على الكتب الدينية أو على بعض الكتابات الأدبية أو الرسائل الخاصة .

وعلى ذلك فإن فهم المعانى الحقيقية للعبارات الغامضة فى الأصول التاريخية هو من أهم واجبات النقد التفسيرى الإيجابى . وتوجد بعض طرق للكشف عن هذه المعانى الخفية أو المستورة خلف المعنى الحرفى للألفاظ ، وهى تتوقف على بعض

الظروف الخاصة . وهناك قاعدة عامة مفيدة في هذه الناحية . وهي أنه إذا كان المعنى الحرفي لبعض النصوص غامضاً أو غير مناسب للموضوع أو متعارضاً مع آراء المؤلف . أو مع الحقائق التاريخية المعروفة لديه ، فإن ذلك يدل على احتمال وجود معنى خفي يقصد إليه المؤلف . ولكي يكشف عنه الباحث ، ينبغي عليه أن يتتبع نفس الطريقة التي درس بها لغة مؤلف بعينه ، فيقارن بين الفقرات التي يشبه في احتوائها على معان غامضة ، ويرى إذا كان من الميسور إدراك المعنى الحقيقي في بعضها . وربما يؤدي فهمه لمضمون إحداها أو بعضها إلى فهمها جميعاً . وبما أنه لا توجد قاعدة محددة للكشف عن هذه المعاني ، فلا يستطيع الباحث في التاريخ أن يدعى وصوله إلى إدراك كل المعاني الخبيثة الواردة في هذا النوع من الأصول التاريخية .

ولكن ليس معنى ذلك أن يسرف الباحث في التشكك في معاني الألفاظ الحقيقية ، وفي تصور الكنايات والمجازات في كل الفقرات أو حيث لا توجد . وربما يحاول الباحث أحياناً أن يزعم لنفسه قدرة معينة على فهم النصوص التاريخية وعلى استنباط الحقائق منها ، ويحصل النصوص ما لا يمكن أن تحمله ألفاظها من المعاني ، وتكون النتائج التي يستخلصها مجرد محاولة لإرضاء القُرور في نفسه ، الذي هو من طبائع البشر .

وعندما يصل الباحث إلى المعنى الحقيقي للنص التاريخي ، فإن عملية التحليل أو التفسير الإيجابي تكون قد انتهت . والنتيجة التي يخرج بها الباحث من ذلك هي أنه أصبح عارفاً بمعلومات كاتب الأصل التاريخي ، وبالصورة التي كوّنوها في ذهنه عن المسائل أو الحوادث التي كتب عنها .

وقد أشار الدكتور أسد رستم بحق ، إلى وجوب الاعتراف بفضل علماء التفسير المسلمين في هذا المجال . فهم قد تدرّعوا بعدة وسائل في تفسير نصوص القرآن الكريم ، واتبعوا في ذلك أسساً علمية صحيحة . ووجدوا أن من أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن . فما حصل في مكد فقد فُسّر في مكد آخر . وما ختصر في موضع فتم بسط في آخر . ولا ريب أن هذه وسيلة حسنة في أحوال كثيرة . ويُفسر القرآن الكريم كذلك . سه التي وردت في مناسبات مختلفة لكي توضح

ما غمض على المسلمين في أمور دنيائهم ودينهم . وكان النبي الكريم أقدر الناس على ذلك ، فهو صاحب الدعوة الإسلامية ، وهو الذي جاهد لنشر الإسلام ، وهو الذي وضع أسس الدولة العربية الإسلامية الجديدة .

وكذلك تساعد أقوال الصحابة على فهم نصوص القرآن الكريم . فالصحابة قد لازموا النبي واتصلوا به اتصالاً وثيقاً ، وفهموا دعوته ، وعاشوا وجاهدوا معه . ولازموا في السلم والحرب ، وعاونوه في إرساء قواعد الدولة العربية الإسلامية ، فأتاح لهم ذلك كله الفرصة لفهم نصوص القرآن الكريم . وتساعد أقوال التابعين أيضاً على فهم القرآن ، إذ كانوا شديدي الصلة بالصحابة ، قريبي العهد إلى عصر الإسلام الأول المجيد ، مما جعل لآرائهم قيمة وأهمية في تفسير القرآن * .

هذه هي مجمل الوسائل العلمية التي اتبعتها علماء التفسير . وهي توضح نصيبهم في تقدم العلم والمعرفة . والإلمام بها يفيد الباحث في التاريخ ، ويساعده على تطبيق هذه القواعد فيما يقع تحت يده من الوثائق والأصول التاريخية .

* رستم ، أسد : مصطلح التأريخ (المصدر المذكور) ص ٧١ - ٨٥ .

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام أبو العباس تقي الدين : مقدمة في أصول التفسير من كلام شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ، عني بتحقيقها جميل أفندي الشطي . دمشق ، ١٩٣٦ . ص ٢٤ - ٣٢ .
ونشأ ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) في دمشق وتعمق في الفقه والحديث وعلم الكلام . وعرف بالتقوى والزهد والشجاعة والجرأة ولقب بمحيي السنة ، ولقى التنكيل من الحكام في مصر والشام ومات مسجوناً في دمشق . ومن آثاره المطبوعة « مجموعة الرسائل والمسائل » و « الرد على المنطقيين » و « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .